

## الفصل الثالث

### تراجم صوفية

١

#### المتصوفة يصفون سلوكهم وتجار بهم

رافقت الإسلام منذ نشأته نزعة زهد ، أخذت تنمو وتتطور وتدخل فيها عناصر أجنبية مختلفة ، انتهت إلى ظهور طبقة المتصوفة ، وهي طبقة تجردت تجرداً كاملاً عن الدنيا ومتاعها ونبتت كل طيباتها ومباهجها مؤثرة الفقر والسسغبة والسياب الخشنة كالصوف ونحوه ، سامية بأنفسها إلى الكائن الأوحده والملاذ الأعلى ، متعطشة إلى نوره الذي يفيضه على الوجود ، متشوقة إلى الاتحاد به والفناء فيه .

وقد أخذوا يضعون لهم منذ أوائل العصر العباسي طقوساً وعادات ، يسمونها أحوالاً ومقامات ، يحاولون بها التخلص من كيانهم المادى وحجب أجسادهم الكثيفة ، حتى يتهاؤوا لانكشاف الحقيقة المتوحده لهم ، وحتى تغمرهم أنوارها ، وتشرق عليهم أضواؤها الأزلية ، بل حتى يفنوا فيها فناء مطلقاً .

وهو فناء ترافقه المحبة وما يسمى بالعشق الإلهى ، وهى محبة من نوع سام ، تتعطل فيها كل الإيرادات والضرورات المادية ، إذ يذوب الحب فى المحبوب ، ولا يكون له وجود إلا فيه . ويتخيلون لذة المحبة كأساً ، لا يشرب منها الصوفى وتحتويه حتى يغيب عن وجوده الظاهر ، وينتشى بفنائه فى وجود باطن مع الكائن الإلهى الأعظم .

ولسنا بصدد البحث في التصوف ولا في نظريات المتصوفة وما يتفق منها مع روح الإسلام وما لا يتفق ، إنما تهمننا تراجمهم الشخصية ، وما خلفوا منها للأجيال التي تلتهم . ومعروف أن لهم كتباً مختلفة عنيت بالترجمة للبارزين منهم على مر العصور .

ومن أهم ما يميز هذه التراجم أنها تصور لنا سلوكهم وتضع تحت أعيننا كثيراً من تجاربهم التي تعد في جوانب منها غريبة وخاصة حين يتحدثون عن كراماتهم ومكاشفاتهم وما عرض لهم من الأحوال . وكثير مما يروى عنهم في يقطبهم يشبه الرؤى والأحلام ، ومن غير شك يتيح ذلك ميداناً فسيحاً لعلم النفس الحديث وأبحاثه ودراساته . وفي الوقت نفسه تتحول تراجمهم إلى تراجم شخصية في أكثر جوانبها ، لأن من كتبها قصرها ، أو كادوا ، على كلامهم في التصوف وما ينصحون به في معرفة الطريق ، وقد يعرضون بعض تجاربهم الحقيقية . وهم في ذلك إنما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ، ففيه الإبهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الخالم إلى أشعة الذات العلية .

ولعل ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النفس . لأننا نجد فيها تجارب تأخذ باللبان ، ومجاهدات تشبه مجاهدات الفراش حين يحوم على النار ، يريد أن يسقط فيها . وهي مجاهدات وتجارب بدأت منذ رابعة العدوية ومعاصرها إبراهيم بن أدهم ، وإليها تنسب هذه الأبيات في العشق الإلهي :

أحبك حُبَّين حُبُّ الهوى      وحبُّ لأنك أهلٌ لذاكا  
فأما الذي هو حبُّ الهوى      فشغلي بذكرك عمن سواكا  
وأما الذي أنت أهلٌ له      فكشفك لي الحُجُبِ حتى أراكا

وكان إبراهيم بن أدهم أميراً من أمراء بلسخ ، فخرج يوماً للصيد . فأنار ثعلباً أو أرنباً . فسمع هاتفاً يهتف به : يا إبراهيم ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم

هتف به : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته ، وصادف راعياً ، فأخذ ثوبه وكان من صوف . وأعطاه ثوبه وفرسه وما معه ، وساح في الأرض تائباً مستغفراً مؤثراً ما عند ربه . ويقال إن حرّس قصره سمعوا ليلة جلبة فوق سطحه ، وذهبوا لتبين الأمر ، فوجدوا قوهماً يدعوون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة . فأتادوهم إلى إبراهيم ولما سألهم هل حدث أن بحث شخص عن إبله المفقودة فوق أحد السطوح؟ أجابوا إننا نقتدى بك لأنك تبحث عن ربك وأنت جالس على كرسي إمارتك . فخلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً وفرّ عن القصر ودخل البادية وظل سائحاً حتى وصل إلى مكة ودخل الشام ومات بها سنة ١٦٦هـ / ٧٧٧ م . وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين . ويقولون إنه كان يحفظ كثرماً فر به جندي . فقال : أعطني من هذا العنب ، فقال : ما أمرني بذلك صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه . فطأطأ له رأسه . وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله ، فأعجز الجندي ومضى . وما يروونه عن سلوكه وسيرته أنه كان يقول : لا ينال شخص درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات ، أولها يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة ، والثانية يغلق باب العز ويفتح باب الذل ، والثالثة يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابعة يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامسة يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت . وهي أبواب اجتازها هو نفسه ليتخلص من متاع الدنيا ، ويحصل على رضوان ربه ، ويصبح من أهل المعرفة المتصوفة الأصفياء .

وتتناقل كتب المتصوفة أقوالاً كثيرة في التصوف وأحواله ومقاماته لأبي سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م من مثل قوله : « إن الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم في فراشه من السر ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للقاتم في صلته . وإذا استيقظت في العارف عين قلبه نامت عين جسده ، لأن العارف لا يرى سوى الحق » ويروي بعض المتصوفة أنه دخل عليه وهو يبكي

فقال له ما يبكيك ؟ فقال : ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ونامت العيون ونحلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم وتقطرت في محاريبهم أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكري . وإني لمطلع عليهم في خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحبائه ؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا لي ، فبي حلفت إنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم ، حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم .

وفكرة الحب الإلهي التي تعلق بها المتصوفة واضحة تمام الوضوح في هذا النص ، وقد ترك الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م كثيراً من النصائح التي إذا اتبعها السالك وصل إلى هذا الحب ، وذكر في نصائحه أنه كان يسير أولاً في طريق سائلك ، ثم اهتدى إلى طريق المتصوفة الصالحين ، وكان يقول : « إن أول المحبة الطاعة . وهي منتزعة من حب السيد عز وجل ، إذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك أنه عرّفهم نفسه ودلهم على طاعته وتجب إليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع في قلوب محبيه ، ثم ألبسهم النور الساطع في ألفاظهم من شدة نور محبته في قلوبهم . . . والحب لله هو الحب المحكم الرصين وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله . وشدة الأنس بالله وقطع كل شاغل شغّل عن الله . . . والحب إذا ثبت في قلب عبد لم يكن فيه فضل للذكر إنس ولا جان ولا جنة ولا نار ولا شيء إلا ذكر الحبيب وذكر أياديه وكرمه . . . وذكر ما وعد أوليائه من كشف الحجب لهم وأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر » . وكان ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م يرى أن غاية الحياة الصوفية الوصول إلى مقام المعرفة حيث يدرك الصوفي الحقائق بذوقه لا بعقله ، وكان يقول من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته ، وقد سئل عن سبب توبته وسلوكه طريق المتصوفة فقال : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فتمت في الطريق في بعض الصحارى ، ففتحت عيني ،

فإذا أنا بقبيرة عيياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرٌ جستان إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت حسبي قد تُبئتُ ، ولزمت الباب إلى أن قبلى الله عز وجل . ويحكى عن السرى السَّقَطَى المتوفى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد ( اللحم المقدد ) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه أن لا يتناول أبداً شيئاً من الإدام . وقال تلميذه وابن أخته الجنيد : « دخلت يوماً عليه وهو يبكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلِّقه ههنا ، ثم إنه حملتنى عيناي ، فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض ، فكسرتة . »

ومن أكبر من طوروا التصوف وفتحوا أبواباً فيه يجتازها من يريد الوصول إلى ربه أبو يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م فقد أشاع الحديث عن الفناء فى الذات العلية بحيث يحصر المتصوف نفسه فى التأمل فى ربه ، ولا يحظر تفكره أى شىء سواه ، بل حتى يعطل حياته العقلية الشاعرة عن إدراك فئائه فى ربه . وقد سئل كيف وصلت وحصلت هذه الدرجة من التصوف فقال : خرجت ذات ليلة من بسطام وكنت صبيهاً ، وقد أضاء القمر وسكن كل شىء ، فرأيت حضرةً كانت العوالم الثمانية عشرة ألفاً إلى جانبها كاللذرة ، فاضطربت واعترتنى دهشة عظيمة ، وصحْتُ يا رب ! ساحة خالية مع هذا العظم وملكٌ موحش مع هذا الجلال ، وإذا بهاتف من السماء يقول : ليس خلوا الساحة من انعدام اللاجئين ، بل لأننا غير ذلك شتناً ، فإنه ليس كل من عَفَّرَ وجهه أهلاً للدخول فى هذه الساحة . وقال : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح

منى في : يا من أنت أنا ، فتحققت بمقام الفناء في الله . وقال : « كنت انثى عشر عاماً حداد نفسي ، ألقيت بها في كور الرياضة وأحرقها بنار المجاهدة ، ووضعها على سندان المذمة ، وطرقها بمطرقة الملامة ، حتى جعلت منها مرآة . وكنت خمس سنين مرآة نفسي أصقلها دائماً بأنواع من العبادة والتقوى ، وسنةً أنظر فيها بعين الاعتبار ، وقد نظرت فإذا في وسطى زُنَّار من الكبر والعجب والرياء والاعتماد على الطاعات والنظر بعين الارتياح إلى الأعمال . فعملت خمس سنين حتى انتقطع ذلك الزنار واعتنقت الإسلام من جديد . ونظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات ، ورجعت من جنازتهم جميعاً ، ووصلت إلى الله بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق » . وفي مثل هذا المعنى قال : « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتي ، فصرت اليوم مرآة نفسي ، لأنني لست الآن من كُنْثته . وفي قولي "أنا" و"الحق" إنكار لتوحيد الحق لأنني عدم محض ، فالحق تعالي مرآة نفسه . بل انظر إن الحق مرآة نفسي لأنه هو الذي يتكلم بلساني ، أما أنا فقد فنيته » . وتنسب إليه أقوال تدل على أنه كان ينزع إلى فكرة وحدة الوجود من مثل قوله : « خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها . ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد في عالم التوحيد » .

وخطا الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ / ١٩٢١ م مقتولاً بفكرة وحدة الوجود خطوات وكتابه « الطواسين » تصوير لأحواله ومقاماته الصوفية ، وهو مليء بالرموز الغامضة ، وكثير من عباراته يشبه الطلاسم ، فهي تستعصي على الحل والفهم ، وإن قوله الذي شاع عنه : « أنا الحق » يلخص نظريته ، إذ يريد بالحق الذات العلية ، وشرح نظريته في ذلك فقال :

« تجلى الحق لنفسه في الأزل قبل أن يخلق الخلق ، وقيل أن يُعلم الخلق ، وجرى له في حضرة أحد بيته مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف ، وشاهد سبحات ذاته في ذاته . وفي الأزل - حيث كان الحق ولا شيء معه - نظر إلى

ذاته فأحبّها وأثنى على نفسه ، فكان هذا تجلياً لذاته في ذاته في صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حدّ . وكانت هذه المحبة علة الوجود والسبب في الكثرة الوجودية . ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتي ماثلاً في صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها ، فنظر في الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه ، لها كل صفاته وأسمائه ، وهي آدم الذي جعله الله صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو عَظَّمه وسجّده واختاره لنفسه ، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو . ونراه يمثل الوصول إلى الحقيقة على هذا النحو : « الخواطر علائق ، وعلائق الخوالق لا تصل إلى الحقائق ، والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة . الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ، الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بلطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعاً في الوصول إلى الكمال . صورة المصباح عِلْمُ الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة . لم يرض بضوئه وحرارته . فلبقى جملته فيه ، والأشكال ينتظرون قدومه ، فيحذروهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاعراً متطائراً ، فيبقى بلا رسم وجسم ، واسم ووسم ، فلائى معنى يعود إلى الأشكال وبأى حال بعد ما حاز . صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر . وكان يرى أن « من هذب في الطاعة نفسه واشتغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه في متع الشهوات ارتقى بها إلى مقام المتقربين ، ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حلّ فيه روح الله . . فيصير مطاعاً ، فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وإن جميع فعله حينئذ فعل الله وجميع أمره أمر الله . ومن شعره قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حَمَلْنَا بدنا  
فإذا أبصرتني أبصرتَه وإذا أبصرتَه أبصرتنا

وقوله :

مُزِجَتْ رُوحَكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزِّجُ الحَمْرَةَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ  
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ فِي كُلِّ حَالٍ

وعُدَّتْ هذه الآراء وما يماثلها خروجاً على الإسلام وتعاليمه فأفتى فقهاء عصره بقتله ، وحُبِسَ طويلاً . ثم قتل . ومن الآراء الغريبة التي نسبت إليه اتخاذهُ إبليس مثلاً للمتصوفة ، لأنه لم يرض أن يسجد لآدم ، حتى لا يسجد لغير ربه ! ويظهر أنه مزج تصوفه بشعوذة غير قليلة .

ولسنا نستطيع المضي في هذه السير الصوفية التي نقصها كتب الطبقات لأنها باب يطول ، ويخرج بنا عن غايتنا من هذا الكتيب الذي جعلناه للترجمة الشخصية يكتبها صاحبها قاصداً ، وأكثر ما قدمناه إنما هو في وصف المتصوفة لسلاوكهم وطريق تخلصهم إلى غايتهم ، وقلما نجد عندهم اعترافات مثل هذا الاعتراف الذي يذكره الحجويزي في «كشف المحجوب» وهو من متصوفة القرن الخامس الهجري ( الحادى عشر الميلادى ) إذ يقول إن الله صانه من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، ثم وقع في فتنة لمدة عام ، إذ أصبح أسيراً لتلك التي لم يرها ، وبقى على ذلك عاماً ، حتى كاد أن يهلك ، وأخيراً من الله عليه بلطفه فعصم قلبه الضعيف ، وخلصه من محنته .

ولم نعرض لكرامات المتصوفة ، وهي الأخرى تعد من تجاربهم ، إذ كانت تعتقد العامة فيهم أنهم يأتون ببعض الخوارق ، وهي تقابل عندهم معجزات الأنبياء . ونقص كتبهم أطرافاً من ذلك كلها عجائب وغرائب ، كأن يطير أحدهم في الهواء أو يمشى على الماء . وقد يكون ذلك ضرباً من التخيل .

وشاخ عند غير واحد منهم القول بإسقاط الشرائع وتعطيل العبادات ، اكتفاء بالوصل وانكشاف الحقيقة ، وانبرى منهم كثيرون يردون على هذا الاعتقاد الفاسد كما انبرى لهم كثير من الفقهاء يسفهون آراءهم وما «رسالة القشيري» المشهورة

إلا رد على أصحاب هذا الزعم بما تروى من سير فضلهم ، الذين كانوا يرون القيام بالفروض الدينية باب الوصول الحقيقي .

ولا نصل إلى القرن الخامس الهجرى حتى يقوم شقاق واسع بين الفقهاء من أصحاب الشريعة والمتصوفة من أصحاب الحقيقة . ولا يلبث الغزالي أن يظهر ، فيظهر التصوف من الأدران التي علقت به من مثل الحلول والإيمان بوحدة الوجود ، وتعطيل فروض الشريعة . وبذلك يرفع الحواجز التي أقامها الطرفان المتعاندان من الفقهاء والمتصوفة . ولم يصل إلى هذه الغاية إلا بعد رحلة عقلية شاقة قصها علينا في كتابه « المنقذ من الضلال » . وربما كان أطرف التراجم الشخصية التي خلفتها لنا العصور الوسطى ، ومن أجل ذلك نمخسه هو وصاحبه بكلمة .

## ٢

### الغزالي

يعد الغزالي أكبر عقلية خدمت الشريعة والتصوف في وقت معاً ، فقد وقف حياته على التوفيق بين هذين الاتجاهين ، ولد في طوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ، ولم يلبث والده أن توفي بعد أن عهد بتربيته إلى صديق له صوفى .

واتجه الغزالي إلى دراسة الفقه وعلم الكلام ، ورحل في سبيلهما إلى نيسابور ؛ فتعلم على إمام الحرمين العالم الشافعى المتكلم المشهور ، وأخذ منذ تتلمذه على هذا الشيخ يضيق بجدل الفقهاء وكثرة تفاريحهم . كما أخذ يضيق بدقائق الكلاميين ، وتحول ذلك في نفسه إلى شك في حقيقة هذين العلمين ، وأيضاً أخذ يشك في آراء الفلاسفة . وحدث أن قدم على مجلس نظام الملك وزير السلطان

السلجوقى فأعجب به ، وعهد إليه أن يقوم بتدريس الفقه وعلم الكلام فى مدرسته المشهورة باسم المدرسة النظامية ، وكانت أكبر جامعة إسلامية فى هذا الحين ، وظل يقوم بهذا التدريس من سنة ٤٨٤ هـ إلى سنة ٤٨٨ هـ وفى هذه الأثناء ألف فى الفلسفة كتاباً دلّ فيه على أنه أحسن الإمام بأصولها ومسائلها عند ابن سينا والفارابى وغيرهما من متفلسفة المسلمين . ولم يكن يقصد بكتابه إلى دراسة الفلسفة من حيث هى ، وإنما أراد أن يصور مسائلها تصويراً دقيقاً حتى يهدمها فى كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» . وتحول يشك فى الفقه والكلام اللذين يدرسهما . ويرى أنهما قاصران عن بث الطمأنينة فى قلب المسلم . إذ لا يستطيع عن طريقهما تذوق الحقيقة العليا . حقيقة الذات الإلهية .

وفجأة ينقطع عن التدريس فى المدرسة النظامية ، ويصرخ فيه هاتف باطنى يدعوه أن ينصرف عن الدنيا ومطامعها ، ويمرض ، ويشفى من مرضه وقد عزم على الرياضة والمجاهدة والخلوة والعزلة عن الناس ، ويرحل عن بغداد ويسبح فى الأرض متقلّبين معابد وصوامع الحجاز والشام ومصر . وفى أثناء ذلك يؤلف كتبه وقد تحول ناسكاً عابداً ، وفى الوقت نفسه مصلحاً دينياً ، يؤمن بأن الدين تذوق باطنى ، وليس مجرد أحكام تعلل وإنما هو كما يقول المتصوفة شىء تشعر به الروح وتتذوقه . وعن طريق هذا الشعور والتذوق يصل المسلم إلى المعرفة اليقينية التى ينشدها . وهو يطهر هذه المعرفة ، فليس فيها إيمان بخلول كما يغلو بعض المتصوفة . وليس فيها إبطال ولا إنكار لأحكام الشريعة ، بل التصوف الحق هو الذى يصل بين هذه الأحكام والقلب . وبهذه الروح عالج الأحكام والسنن الشرعية فى كتابه المشهور «إحياء علوم الدين» وكتبه الأخرى التى ذاعت فى العالم الإسلامى وعُدَّ بها «حجة الإسلام وزين الدين» . وعاد فى أواخر أيامه إلى وطنه واشتغل بالتدريس فى نيسابور ، وكتب كتابه «المنقذ من الضلال» يصف رحلته العقلية ، وكيف وصل أخيراً إلى الحق ، ولم يلبث أن توفى بطوس سنة ٥٠٥ / ١١١١ م .

والغزالي يفتح كتابه بأن بعض إخوانه سأله أن يشرح كيف ارتفع عن حضيض التقليد إلى قمم الاستبصار وتحصيل العلم اليقيني ، ويقول إن « اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ببحر عميق ، غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون » . ويذكر أنه منذ شبابه إلى أن أناف على الخمسين يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض أغواره وأعماقه خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، ودعاه ذلك إلى أن يتوغل في الاطلاع على كل مذهب عند أهل السنة وعند الباطنية وعند الفلاسفة والمتكلمين وعند الصوفية المتعبدين ، بل أيضاً عند الزنادقة والملحدين . ويقول إنه طُبع منذ الشباب على ترك التقليد ، ومحاولة معرفة الطريق إلى العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب . واجتاحتته في أول أمره لذلك موجة من الشك ، أنقذه الله منها ، يقول :

«أعضل هذا الداء "داء الشك" ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة "الشك" بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفا الله تعالى ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن كل ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيقت رحمة الله الواسعة » .

ولما شفاه الله من هذا المرض انحصرت أمام عينه فرق طالبي الحق في أربعة أصناف هم ( ١ ) المتكلمون ( ٢ ) والباطنيون من الشيعة ( ٣ ) والفلاسفة أهل المنطق والبرهان ( ٤ ) والصوفية أهل المشاهدة والمكاشفة . وأخذ يسلك طرق هذه الفرق ، ينشد الحق مبتدئاً بعلم الكلام ، حتى إذا لم يجد فيه طلبته انتقل إلى الفلسفة ، فافتقد بغيته ، فتحول إلى تعاليم الباطنية ، فلم يجد فيها أمنيته ، وانتهى أخيراً إلى التصوف . فوجد فيه النور الذي كان ينشده .

ويصف لنا أولاً رحلته في علم الكلام ، وكيف تعمق في دراسة مباحثه وأهم كتبه ، بل لقد ألف فيه . ويصور لنا غايته وهي حفظ العقيدة الإسلامية وحراستها من تشويش أهل البدع ، وهي غاية نبيلة . إلا أن الغزالي لم يلبث أن لاحظ قصور أدلة المتكلمين لاعتمادها على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطروهم إلى التسليم بها التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . فلم يكن الكلام له كافياً ، ولا لدائه الذي يشكوه شافياً .

ومعنى ذلك أنه عد أدلة الكلاميين إسرافاً عقلياً لا غناء فيه . لسبب بسيط وهو أنه لا يتفق مع بساطة الفكر الديني . وتحول إلى الفلسفة لعله يجد فيها ما يشفيه من مرضه . وبدأ فدرسها دراسة دقيقة . وكان في أثناء ذلك يلقى محاضراته على ثلاثمائة طالب بالمدرسة النظامية . فلم يصرفه هذا العمل عن تحصيلها ، بل لقد واصل النظر فيها ، حتى عرف فرقتها واختلاف مذاهبها وطوائفها ، وقد انتهى إلى أنهم ثلاثة أصناف : صنف دهريون جحدوا الصانع المدبر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع . وهم الزنادقة . وصنف طبيعيون يكثرون من البحث في عالم الطبيعة ، وهداهم هذا العالم إلى أن له صانعاً حكيماً ، ولكنهم لم يعتقدوا في شيء وراء ذلك فلم يؤمنوا بالبعث والنشور . وهم أيضاً زنادقة وإن آمنوا بالله وصفاته . وصنف ثالث إلهيون ردّوا على الصنفين الأولين ، ولكنه استبقى من ردائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها : ومن هذا الصنف أرسططاليس ومتفلسفة المسلمين كابن سينا والفارابي . ونراه بعد ذلك يتحدث عن علوم المتفلسفة فيقول إنها بالنسبة إلى الشريعة ستة أقسام : ( ١ ) رياضيات ( حساب وهندسة وعلم هيئة ) وهي أمور برهانية لا تجحد معرفتها إلا أنه تولد منها آفتان . أولاهما أن من ينظر فيها يعجب بدقائقها وظهور برهينها ، فيحسن اعتقاده في الفلاسفة وينسحب هذا الاعتقاد على ما يقولونه في الإلهيات ، ناسياً

أن كلامهم في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني . وثانية الآفتين جاءت من أصدقاء الإسلام الجهال الذين ينكرون الفلسفة حتى رياضياتها ، فشككوا الناس في الدين إذ ظنوا أنه مبني على إنكار البراهين القاطعة . ( ٢ ) ومنطقيات ، وهي لا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا ، وهي تشبه ما ذكره المتكلمون من أدلتهم ، وآفتها آفة الرياضيات . ( ٣ ) وطبيعيات ، والدين لا ينكرها إلا في بعض مسائل سبق أن ذكرها في كتابه « تهافت الفلاسفة » . ( ٤ ) وإلهيات وفيها أكثر أغاليطهم ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها ، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً . وكفرهم الغزالي في ثلاثة منها وهي : أن الأجساد لا تحترق وإنما تحترق الأرواح . والله تعالى يعلم الكلبيات دون الجزئيات وهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . ثم قولهم بقدم العالم وأزليته . ( ٥ ) وسياسيات ترجع إلى الحركيم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، وهي لا تتعارض مع الدين ؛ بل لأنها تستمد منه . ( ٦ ) وخلقيات وهي معارف تهذيبية أخذوها عن المتصوفة ومزجوها بكلامهم . ويرى الغزالي أن لمجموع هذه العلوم آفتين : أن من يؤمن ببطلانها قد يرد ما نقل إليها من الدين وكلام الرسل والأنبياء والمتصوفة وما جاء على السنة عبّادهم ونسأكهم . لأن أطرافاً من كل ذلك مزجوها بكلامهم : والآفة الثانية أنه قد يرى هذه الأقوال التي يؤمن بصحتها عندهم ، فيؤمن جملة بآرائهم وما فيها من باطل . ولذلك دعا الغزالي إلى تمحيص كتبهم بل زجر عن مطالعتها . ونهى عن قراءتها . لما فيها من مزائق ومخاطر .

ويقول الغزالي إنه بعد أن فرغ من علم الفلسفة وتزويغه وعرف أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب انتقل إلى تعاليم الباطنية التي شاعت في عصره فطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . ودرسها دراسة فاحصة ، وأخذ في تقرير شبهاتهم إلى أقصى الإمكان . ثم أظهر فسادها بغاية البرهان . وقد وقف عند قولهم بأنه لا بد من معلم معصوم يعلم الأمة . وارتضى هذا القول ، ولكن على أن المعلم المعصوم هو الرسول صلى الله عليه وسلم . لا الإمام كما تقول الباطنية . وقال إنه لا

يضر هذا المعلم وأتمته أن يموت بعد أن أكمل التعليم وبث دعائه في البلاد . وهو في ذلك يرد على فكرة الغيبة التي يؤمن بها بعض الشيعة . ووقف أيضاً عند رفضهم للاجتهاد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده فإن لم نجده اجتهدنا . وقال إن الاجتهاد ضروري لسبب بسيط ، وهو أن « النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية . فلا بد من الاجتهاد في إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة » . فعل العاقل أن يجتهد رأيه فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل . ويقول إنه ليس الغرض الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتب أخرى . بل « المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم .. ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً » . وبذلك ينفذ يده من الباطنية كما نفذها من الفلاسفة قبلهم والمتكلمين . ولا يبقى أمامه إلا طرق الصوفية . فيسلكها قائلاً :

« إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهتدي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . وكان العلم أيسر على من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل " قوت القلوب " لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم . حتى اطلمت على كنه مقاصدهم العلمية . وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسمع . فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالذوق والخال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشيع وأسابيها وشر وطهما وبين أن يكون " الإنسان " صحيحاً وشبعاناً ، وبين أن يعرف حد السكر .. وبين أن يكون " الإنسان " سكراناً . بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه . وهو سكران وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشر وطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقيناً أنهم "الصوفية" أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته . ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسمع والتعلم . بل بالدوق والسلوك . وكان قد حصل معي من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمانٌ يقيني بالله تعالى وبالنبوة وبالذيوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رمت في نفسي لا بدليل معين محرّر "متحرّري" بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكُنْه المهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمسٌ في العلائق ، وقد أهدت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبلٌ على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكّرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى . بل باعها ومحرّكها طلبُ الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأنّي قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل في التفكير مدة وأنا بعدُ على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلّ العزم يوماً ، وأقدّم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جُنْد الشهوة جملة ، فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فتي تستعد ، وإن لم تقطع الآن

هذه العلائق فتنى تقطع ؟ . . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض "وظيفته في المدرسة النظامية" والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتغنيص والأمن الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر ، وألها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وعلى هذا النحو يصف الغزالي ما ألمَّ به من صراع نفسى عنيف نشأ عن حيرته ، فهل يضحي بجاهه العريض ويرحل عن بغداد أو يظل في هذا الجاه الذى أكسبه إياه توفيقه في الدرس والتعليم ؟ . ووقع مدة ستة أشهر فريسة هذين الباعثين القويين . فيوماً يعزم على الخروج ويوماً يثني عن هذا العزم ، ويوماً يقدم رجلاً ويوماً يؤخر أخرى . حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فلم يعد يمكنه التدريس . بل لم يعد يمكنه النطق بالكلام . وأورثه ذلك حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم والرغبة في الأكل والهناة في الشراب ، وضعفت قواه ضعفاً تاماً . وسُدَّتْ أمامه جميع الأبواب ولم يبق أمامه مفتوحاً إلا باب التصوف ، فسلكه راضياً مرضياً . يقول :

« ثم لما أحسست بعجزى . وسقط بالكلية اختياري . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابني الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب . وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسى سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بطائف الحليل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعودها أبداً . . فقارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . . ثم دخلت الشام وأقيمت به قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والحلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية .

فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، وأصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى . ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه . فسرت إلى الحجاز . ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى في أثناء هذه الخلاوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها . . . وهنا تنهى رحلة الغزالي العقلية . فقد تخلص عقله من الأبحاث الملتوية التي تعمقها في بيئات المتكلمين والمتفلسفة والباطنية ، ووجد خلاصه أخيراً في بيئة المتصوفة ، حيث يتحول الشعور الديني إلى تجربة ذاتية قلبية . تُدرك بالدوق لا بالعقل ، وقد أخذ يشيد بالتصوف وأصحابه قائلًا :

« إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسنُ السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق . بل لو جمع عقلُ العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنيهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة . . أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها . . استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله . . ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات . . وكراماتُ الأولياء على التحقيق هي بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد . حتى قالت العرب إن محمداً عشق ربه » .

وواضح من ذلك أنه يربط بين التصوف ونبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تصوفه هو الذى هداه إلى حقيقة النبوة ، فالرسول هو منبع الحياة الدينية الروحية ، ومنبع النور الذى يفيض على المتصوفة من أمثال الغزالي . ومعنى هذا أنه عرف حقيقة النبوة عن طريق شعوره الشخصى بأشياء هى من خصائص الرسول والرسالة ، يقول : « وما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقهم حقيقة النبوة وخصايصها » . ثم يعقد فصلاً خاصاً لها يبين فيه أنها تدرك بدراسة القرآن والأحاديث وأحوال الرسول كما تدرك بذوق المتصوفة وما يشاهدونه فى أنفسهم من خصائص النبوة .

وشعر الغزالي شعوراً عميقاً فى نفسه بأنه مصلح دينى وأن عليه أن يمكن عقيدة الصوفية فى نفوس الناس ، ولذلك تحركت فى نفسه عوامل الرجوع إلى نشر العلم ، فأخذ فى نشر كتبه وعلى رأسها كتابه « إحياء علوم الدين » . وخرج من عزلته ، ورحل إلى نيسابور ، وأخذ يعلم الناس . ويشغل بالتدريس ، وفرق بين ما يدرسه الآن وما كان يدرسه سابقاً فى بغداد ، فهو كما يقول إنما يدرس « العلم الذى به يترك الجاه . ويعرف به سقوط رتبة الجاه » مبتغياً أن يصلح نفسه وغيره . ويحتم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباها ، وأرشده إلى الحق وهداه . . »

## بعد الغزالي

رأينا الغزالي يترجم لحياته العقلية وتطورها ، حتى انتهى إلى طريق التصوف ، فألقى عصاه عنده ، وفتح بما وجد فيه من نور أضاء به قلبه . ولا نجد بعده متصوفاً يترجم حياته على نحو ما تقدم في غير هذا الموضوع من تراجم المتفلسفة مثلاً ، إنما يعنى المتصوفة كما رأينا في أول هذا الفصل بوصف سيرتهم الصوفية وقد يذكرون بعض تجاربهم ، وقد تتحول بعض كتبهم إلى تجارب خالصة ، ولكنها جميعاً ليست من الترجمة الشخصية بمعناها التام ، وهى الترجمة التى تعنى بالشخص ووصف حياته وحقائقها بكل ما صادفه فيها من شر وخير وبؤس ونعيم . ويكاد يكون لكل صوفي حديثه عن تصوفه وبعض تجاربه ، وسنكتفى ممن جاءوا بعد الغزالي بثلاثة هم ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م وابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م والشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م . أما ابن الفارض ، فقد خلف قصيدة سماها نظم السلوك ، وهى تائيته الكبرى التى يصور فيها معراجه الروحي وما عاناه في هذا المعراج من شدائد ، حتى وصل إلى مقام الاتحاد بالذات العلية ، ويقص لنا ذلك قصصاً بديعاً ، واستمع إليه يصف ما تحمله من مشقة وعناء في أول عهده بالحب الإلهي ، يقول :

أطعها عصتُ أو أعصتُ كانت مطيعتي	ونفسيَ كانت قبلُ لوامةً متى
وأتعبتها كيما تكون مريحتي	فأوردتها ما الموتُ أيسرُ بعضه
بتكليفها حتى كلفتُ بكلفتني	وكلفتها ، لا بل كلفتُ قيامها
بإبعادها عن عاها فاطمأنت	وأذهبت في تهديها كل لذة
عبوديةً حققها بعبودة	وكل مقام عن سلوك قطعته

ويخرج من هذا الإجمال في إيراد نفسه موارد الملكة ، حتى تسكن إلى الطريق ، يخرج من ذلك إلى بيان أعمال العبادة التي أخذها بها ، وهي النسك والفقه ، والصوم ، وتلاوة القرآن بالليل ، وترتيل الأوراد ، وكثرة الاعتكاف ، والسياحة في الأرض ، والقناعة والزهد ، ورياضة نفسه على العشق والمحبة ، يقول :  
 رجعتُ لأعمال العبادة عادةً وأعددتُ أحوال الإرادة عدتي  
 وعدتُ بنسكي بعد هتككي وعدت من خلاعة بسططي لانقباض بعفة  
 وصمتُ نهاري رغبةً في مئونة وأحييت ليلي رهبةً من عقوبة  
 وعمرتُ أوقاتي بورْد لوارد وصمتُ لسممت واعتكاف حرمة  
 وبنيتُ عن الأوطان هجران قاطع مواصلة الإخوان واخترتُ عزلي  
 وأنفقت من يسر القناعة راضياً من العيش في الدنيا بأيسر بلغم  
 وهذبت نفسي بالرياضة ذاهباً إلى كشف ما حُجِب العوائد غطت

وعلى هذا النحو نجد ابن الفارض في تائيته بصور لنا سيرته الشخصية في التصوف وما أخذه به نفسه في حياته العملية .

وتكاد تكون كتب ابن عربي كلها تصويراً لسيرته الصوفية ، التي تقوم من جهة على الإيمان بوحدة الوجود كما تقوم على المكاشفات والمشاهدات التي ترفع الحجب عما وراء الغيب .

ومعروف أن ابن عربي أندلسي الأصل وأنه وجد طريقه إلى التصوف على شيوخ من بلده ، ثم ساح في العالم الإسلامي وبلاد الروم سياحة متصلة ، يتعلم فيها ويعلم ويناقش . وتكثر عنده الرؤى والأحلام ، ومن أوائل أحلامه قوله : إنه « في ليلة من الليالي تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف » ويقول إن بعض العارفين فسّر له ذلك بأن الله يفتح له العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب . وقد جاور في مكة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وفي هذه المجاورة تعلق بفتاة تسمى « نظاماً » وأوحت إليه بديوانه « ترجمان الأشواق » وظهره عشق بهذه الفتاة ، وباطنه معان صوفية يقصد بها العشق الإلهي والفناء في الذات العلية . ومن

أهم كتبه « فصوص الحِكْمِ » وهو يعرض فيه لإيحاءات يردّها إلى الأنبياء الذين أُرسلوا للناس ، وكلها تقطع وتشهد بفكرة وحدة الوجود . وأوسع كتبه وأجمعها لآرائه ومكاشفاته وأحلامه « التتوحات المكية » وهو يذكر في فاتحته هذه الرؤيا التي رآها حين بدئه في الكتاب . يقول بعد التحميد :

« الصلاة على سر العالم ونكته . ومطلب العالم وبغيته ، السيد الصادق ، المدلج إلى ربه الطارق ، المحترق به السبع الطرائق ”السموات“ ليريه حين أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق ، فيما أبدع من الخلائق ، الذي شاهدته عند إنشائي لهذه الخطبة في عالم الحقائق ، في حضرة الجلال ، مكاشفة قلبية ، في حضرة غيبية . . شاهدته صلى الله عليه وسلم في ذلك العالم سيداً معصوماً المقاصد ، محفوظ المشاهد ، منصوراً للناس مؤيداً وجميع الرسل بين يديه مصطفون ، وأمته التي هي خير أمة أخرجت للناس عليه ماتقون ، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حاقون ، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صاقون ، والصدّيق عن يمينه الأنفس ، والفاروق عن يساره الأقدس ، والختم عليه السلام بين يديه قد جثا ، يخبره بحدث الأنثى ، وعلى صلى الله عليه وسلم يترجم عن الختم بلسانه . وذو النورين مشتمل برداء حياته مقبل على شانه ، فالتفت السيد الأعلى - والمورد العذب الأحلى ، والنور الأكشف الأجلى ، فرآني وراء الختم ، لا شراك بيني وبينه في الحكم ، فقال له السيد : هذا عبدك ، وابنتك وخليلك ، انصب له منبر الطرقات بين يدي . ثم أشار إلى : أن قم يا محمد عليه ، فأثنى على من أرسلني وعلى ، فإن فيك شعرة مني ، لا صبر لها عنى ، هي السلطانة في ذاتيتك ، فلا ترجع إلى إلا بكليتك ، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء . فإنها ليست من عالم الشقاء . فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعيد ، وكان ممن شكرك في الملائكة الأعلى ومحمد . فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر ، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر : هذا هو المقام الحمدي الأطهر ، من رقي فيه فقد ورثه ، وأرسله الحق في العالم حافظاً لحرمة الشريعة

وبعته . ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكَم ، حتى كأنى أوتيت جوامع الكلم ، فشكرت الله عز وجل وصعدت أعلاه ، وحصلت في موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه ، وبُسط لى على الدرجة التى أنا فيها قميص أبيض ، فوقفت عليه ، حتى لا أباشر الموضوع الذى باشره صلى الله عليه وسلم بقدميه تنزيراً له وتشريعاً .. ثم رُددت من ذلك المشهد النوى العلى ، إلى العالم السفلى ، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب ، وأخذت في تنميم صورته . وتفيض كتابات ابن عربى على هذه الشاكلة بتجارب روحية يستمدّها حيناً من أحلامه وحيناً من يقظته ، وجميعها تعبر عن انجذاب صرْفى عنيف .

وأما الشعرانى فإمام متصوفة مصرى في أوائل العصر العثمانى ، وقد خلف كثيراً من المؤلفات فى التصوف وغيره ، وتمتاز مؤلفاته الصوفية بالبساطة ، وهى تمتلئ بالحديث عن نفسه وشيوخه ومن سبقهم ، يورد ذلك فى سداجة .

ويهمنا هنا كتابه « لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق » فإنه قصّ علينا فى هذا الكتاب سيرة حياته مجملّة ، ثم أخذ يسرد مناقبه وأخلاقه وفى العادة يبدأ كل خلق وكل منقبة بقوله : وما من الله علىّ به كذا أو وما أنعم الله علىّ كذا ، ثم يذكر المنقبة أو الفضيلة .

وفراه فى الباب الأول يتحدث عن نسبه ، ويقول إنه من ذرية محمد بن الحنفية ، وإن جده الأعلى كان سلطاناً لبلاد تلمسان فى المغرب ، وتزهّد أحد أبنائه وتبع أبا مدين التلمسانى الإمام الزاهد ، فأرسله فى بعض أتباعه إلى مصر ، واستقر فيها ، وكان حفيده أحمد ينزل من قرية « ساقية أبى شعرة » بإقليم المنوفية . وإليها ينسب الشعرانى واسمه عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الشيخ موسى الذى وفد على مصر كما أسلفنا من المغرب ، ويظهر أن أبنائه كانوا مشايخ طرق من بعده .

وحفظ الشعرانى القرآن الكريم فى قريته وواظب على الصلوات الخمس منذ كان فى الثامنة من عمره ، ويذكر كرامة حدثت له وهو صغير فإنه سبح فى

النيل وأوشك على الغرق ، لولا تمساح امتد تحت رجله ، فوقف عليه ، حتى استراح ، ثم تابع سباحته . ونجا . وهاجر من الريف إلى القاهرة لقرأة العلوم وحفظ المتون والكتب ، ويحصى ما حفظه من مثل ألفية ابن مالك والتوضيح لابن هشام وجمع الجوامع للسيوطي وجميعها في النحو ، ومثل تلخيص المفتاح في البلاغة وكتاب المنهاج للنووي في الفقه والشاطبية في القراءات . ويذكر لنا أنه جلس إلى حلقات الشيوخ الذين كانوا يشرحون هذه الكتب والمتون من مثل الشيخ زكريا الأنصاري . ويسرد علينا ثبناً طويلاً بالشروح التي قرأها ، في مختلف العلوم والفنون ، ويقول إنه كان يأخذ بالأحوط في دينه وأنه لم يأخذ الرُّخَصَ إلا بالطريق الشرعي ، وإنه ما زال حتى تبهر في الفقه على جميع المذاهب وألف فيه ، وأعجب الفقهاء المختلفون بتأليفه ، وأذن له الشيخ زكريا الأنصاري أستاذ عصره بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف ، وأخذ يكثر من مطالعته لكتب الشريعة وآلاتها من حديث وأصول ، كما أخذ يكثر من التأليف .

ولما تبهر في علوم الشريعة قاده هذا التبهر إلى مجاهدة نفسه وسلوك طريق التصوف ، وسار في الطريق أولاً من غير شيخ يهديه ، وكان يطالع كتب المتصوفة من مثل رسالة القشيري وقوت القلوب لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي ، ويقول إن من جملة ما جاهد به نفسه حينئذ أنه كان يجعل حبلار في سقف خلوته محرراً على عنقه إذا جلس ولا يصل إلى الأرض لو اضطجع . فكان يجعله في عنقه من العشاء إلى الفجر . وظل على ذلك سنين ! يقول :

« ولم يكن لي بمحمد لله علاقة دنيوية تعوقني عن المجاهدة . . . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداً أي وُحْمِي ، فأغتنى بمحمد الله عن وقوعي في الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لي أنبي باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي منذ بلغت . ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحسب إلى وقتي هذا . وعرضوا "الولاة" على الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان المباشر والتجار يأتونني بالذهب والفضة ، فأثرهما في صحن جامع الغمري !

”الجامع الذي كان يتنسك فيه“ فيلتقطهما المجاورون . وتركت أكل لذيق الطعام ،  
ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين ، وأكلت التراب لما  
فقدت الحلال نحو شهرين ! . . وضافت على الأرض كلها ونفرت من الناس  
ونفروا مني ، وكنت أقيم في المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة . .  
وكنت أطوى الثلاثة الأيام وأكثر . ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير  
زيادة . وضعفت بشربتي . وقويت روحانيتي ، حتى كنت أصعد بالهمة في  
الغواء إلى الصاري المنصوب على صحن جامع الغمري ! فأجلس عليه في الليل  
والناس نائمون . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة  
روحانيتي وطابها الصعود إلى عالمها . فإنه لا يثقل الإنسان في الأرض إلا كثرة  
الشهوات . . ولما غلب على طلب العزلة عن الناس تنكرت مني جميع قلوب  
أصحابي ، ونفروا مني . حتى كأنهم لا يعرفونني من ضيق وقتي عن مباسطهم  
بالكلام اللغو وعدم المجالسة . . وكنت لا أأكل قط طعام فقير . لا كسب له .  
من المتعبدین في الزوايا . من غير كبير اشتغال ، خشية أن يكون ممن يأكل  
بدينه وهو لا يشعر . وكذلك كنت لا أأكل طعام قاض ولو كان من أهل  
الدين لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس . . ثم طويت عن  
طعام جميع الناس فلا أأكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار . وذلك حين لا تجد  
أمعاناً شيئاً تشتغل به ، فيلذع بعضها بعضاً . وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر  
بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلى الصبح . وأذكر ” الله “  
إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى . وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلى  
الظهر . ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى  
العشاء وهكذا . ومكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى برُبُع القرآن  
بين المغرب والعشاء ، ثم أهجد بياقيه ، فأختمه قبل الفجر . وربما صليت  
بالقرآن كله في ركعة ! . وكان نومي غلبة تخطف رأسي خطفة بعد خطفة وخطفة  
بعد خطفة . وكثيراً ما يغلب على النوم فأضرب أفخاذي بالسوط . . ولا شك

أن وقوف المحب بين يدي الله عز وجل في الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تجليه .

ويذكر الشعراني بعد وصفه لما أخذ به نفسه من عناء شاق في أول سلوكه للطريق أنه وجد في نفسه ارتياحاً للاجتماع بمن سلك هذا الطريق قبله . فاجتمع بخلائق منهم لا تحصى . وأهم من اجتمع بهم ثلاثة على المرصفي ومحمد الشناوي وعلى الخواص . ولزم الأخير ، وأذاقه كثيراً من حلاوة الطريق وأحواله . ودخل به في مجاهداته ومتهاته .

وتتعاقب أبواب الكتاب الذي يقع في مجلدين ضخمين شارحةً مناقب الشعراني وفضائله وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على الزهد في الدنيا وطيباتها والتوكل على الله مع الصلاة . والتسبيح ، وتلاوة القرآن الكريم . ويعرفنا في أثناء ذلك بزوايته وكثرة المريدين له وما كان يأخذهم به من آداب . ويبسط أمامنا كل سيرته في صلته بالحكام والعلماء والمتصوفة وعامة المصريين من الفلاحين وغيرهم .

ويمزج الشعراني فضائله بفضائل المتصوفة من شيوخه ومن سبقهم ، حتى ليتحول الكتاب إلى بحث واسع في مناقب هذه الطائفة . وقد حمل حملة شعواء على العلوم الفلسفية ، وفضّل علوم التصوف الوهبية على علوم الشريعة الكسبية ! ولا يترك واردة ولا شاردة في حياته الشخصية إلا ويقصها . حتى معاملته لزوجته وخادمه ، وهو يقص ذلك في بساطة وسذاجة .

وتتجلى هذه البساطة أيضاً فيما يرويه من مكاشفات المتصوفة ومشاهداتهم ، وما يقصه من ذلك عن نفسه وأنه رُفِع عنه الحجاب ! ويقول إن ما يجري على يديه من كرامات لم يقصده ، وإنما أجراه الله جل وعز وحده . ويعرض طائفة من رؤاه ، ويقول إن الله شرفه برؤياه مرتين وأنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعيسى وبالخضر وبالقطب عليهم السلام مراراً . ويصف كثيراً من

الخوارق التي شاهدها والتي سمع بها عن الصالحين قبله ، ويكثر من خوارق  
أستاذه على الخوآص والشيخ المتبولي . وكثير منها يمكن تعليله ، وكثير يستعصى  
على التعليل . والكتاب بذلك كله ترجمة شخصية وافية لسيرة الشعراني وسلوكه  
وكل ما أخذ به نفسه من أفعال وأقوال .